المقامة الساوية*

للحريري

حدث الحارث بن همام قال: آنست من قلبي القساوة. حين حللت ساوة[١]. فأخذت بالخبر المأثور. في مداواتها بزيارة القبور، فلما صرت إلى محلة الأموات، وكفات الرفات [٢]. رأيت جمعا على قبر يحفر، ومجنوز يقبر، فانحزت إليهم متفكرا في المآل، متذكرا من درج من الآل[٣]، فلما ألحدوا الميت، وفات قول ليت، أشرف شيخ من رباوة[٤] متخصرا بهراوة، وقد لفع وجهه بردائه [٥] ونكر شخصه لدهائه. فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون، فاذكروا أيها الغافلون، وشمروا أيها المقصرون، وأحسنوا النظر أيها المتبصرون ! ما لكم لا يحزنكم دفن الأتراب، ولا يهولكم هيل التراب ؟ ولا تعبؤون بنوازل الأحداث، ولا تستعدون لنزول الأجداث [٦]. ولا تستعبرون لعين تدمع، ولا تعتبرون بنعي يسمع ؟ ولا ترتاعون لإلف يفقد. ولا تلتاعون لمناحة تعقد ؟ يشيع أحدكم نعش الميت، وقلبه تلقاء البيت. ويشهد مواراة نسيبه، وفكره في استخلاص نصيبه، ويخلي بين ودوده ودوده[٧] ثم يخلو بمزماره وعوده. طالما أسيتم على انثلام الحبة، وتناسيتم اختراع الأحبة [٨]، واستكنتم لاعتراض العسرة، واستهنتم بانقراض الأسرة، وضحكتم عند الدفن، ولا ضحككم ساعة الزَّفن [٩]. وتبخترتم خلف الجنائز، ولا تبخترتم يوم قبض الجوائز. وأعرضتم عن تعديد النوادب، إلى إعداد المآدب. وعن تحرق الثواكل. إلى التأنق في المآكل.لا تبالون بمن هو بال، ولا تخطرون ذكر الموت ببال. حتى كأنكم قد علقتم من الحمام بذمام، أو حصلتم من الزمان على أمان، أو وثقتم بسلامة الذات، أو تحققتم مسالمة هادم اللذات. كلا ساء ما تتوهمون. ثم كلا سوف تعلمون.

الهوامش:

* مقامات الحريري - دار صادر، بيروت، ص٩٣.

(١) ساوة: بلدة بين الري وهمذان. الخبر المأثور: هو قوله، عليه السلام: إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: وما جلاؤها ؟ قال: تلاوة القرآن وزيارة القبور.

(٢) الأصل في الكفات: الأوعية التي تضم الشيء، يريد بها الأرض.

(٣) المآل: المرجع. درج: مات ومضى. الآل: الأقارب بمعنى الأهل.

(٤) الرباوة: ما ارتفع من الأرض.

(٥) لفع: غطى وستر

(٦) الأحداث: حوادث الدهر ومصائبه. الأجداث، جمع جدث: وهو القبر.

(٧) ودوده الأول بمعنى المحب، ودوده الثاني جمع دودة. أسيتم: حزنتم.

(٨) الاختراع: الانقطاع والاستئصال.

(٩) الزفن: نوع من الرقص.